الفصل الرابع والعشرون

وادي بيش

كان مرشداي عند وعدهما، فقد عادا في الوقت المحدد من عند دفء الوادي، إلى برودة المرتفعات حيث أكون، ولم نبدأ التحرك من المعسكر إلاَّ عند الساعة العاشرة صباحاً سالكين طريقاً منحدراً صعباً يهبط من عند الممر وقد قيل إنه يصلح لسير الجمال. يفضل معظمنا أن يسير على قدميه وأن يترك الحيوانات تهتدي إلى طريقها إلى أسفل غير مثقلة بأوزاننا. لقد قمنا باستبدال حمير استؤجرت من ظهران بجمال استؤجرت من سنحان التي أمدّنا بها دليم في حوط، إلاَّ أنها كانت مخلوقات شديدة التحول مقارنة بجمال الصحراء. لقد عبرت الجمال هذا الطريق من قبل، ولذا فقد سلكته الآن بلا حوادث، مع الكثير من الصراخ المشجع من جانب السائقين. يتبع الطريق أول الأمر أخدوداً عميقاً في الصخر البركاني، وبه جانب صعب بمعنى الكلمة يقع على امتداد الرف الضيق، غير أن ظروف السير قد تحسنت، بعد أن عبرنا مسيل شراغب، من فوق سفح عشبي إلى أن وصلنا إلى بطن شعيب قرض الذي يقع حوالي ٦٠٠ قدم تحت معسكرنا الليلي. لقد استغرق بحثنا عن هذا الجانب من الممر ما يقارب الساعة الكاملة.

كان الوادي الذي هبطنا إليه الآن يجري في اتجاه جنوبي، وهو كثيف الغطاء النباتي بما في ذلك أشجار التين البري (أثاب) وأشجار الطلح وأشجار العلب وجنبات من نبات العثرب وأنواع أخرى عديدة. وصلنا إلى قطعة أرض بوكسية (مغر) بارزة من فوق جلاميد البازلت وإلى ركام حجارة تقع من خلفنا. وصلنا

بعد مسافة قليلة إلى الأسفل إلى ثقب ماء بياضه ويقع في منخفض رملي في وسط صخور مغر، وهو مشرب معروف بالنسبة للرعاة المحليين. لا يبدو أن هنالك أثراً للإنسان، إلى أن صرخ فينا قزم يشبه القرد، نصف عاري يقف عند صدع في الجلمود. لقد كان بلا شك يلحظ تحركاتنا باهتمام لبعض الوقت ويبدو أنه قد تعرَّف على مرشدينا. ويدور المسيل إلى أسفل قليلاً ناحية الجنوب الشرقي في مضيق كئيب لا يزيد عرضه عن ٥٠ ياردة من جلاميد داكنة عالية من الشست، دقيقة المسام ومرتبة عمودياً كأنها ألواح. بدأ غطاء نباتي من أنواع جديدة ينتشر، ويسود فيه التين البري. لقد كانت طيور السوَّادية تتغذى على ثمار التين، بينما أزعج وجودنا سكينة سرب من طيور الحجل بالقرب من تدفق مسيل صغير (حرة) من جهة الشمال، تقع قليلاً إلى أمام فم مسطح جميل لمياه الغيل يسمى مبرته. لم يكن المضيق هنا بأعرض من ٢٠ ياردة وقد سال الجدول بين سلسلة من البرك الصغيرة فوق بطن الوادي الرملية الداكنة اللون. قررنا أن نتوقف هنا لننال قسطاً من راحة الظهيرة إذ أن جمال العفش قد أدركتنا منذ قليل. وتحتاج هي بدورها لشرب الماء بعد إجهادها. لقد أمضيت الوقت مع توقعات حظي مع حصاد البندقية وشبكة صيد الفراشات وأنا أتجول بين أشجار التين وشجيرات اللافندر في هذه المضايق وقد تمكنت آخر الأمر من إضافة طائر من طيور السوَّادية وفراشة من نوع بابليودمالس إلى مجموعتي المتحفية.

كانت الساعة الثالثة مساءً عندما واصلنا مسيرتنا أسفل المضيق مع تواتر منقطع لظهور مياه الغيل وأعشاب الحلفا. لقد انكشف الوادي بعد مسيرة ساعة واحدة على الأقدام، والتي خلالها اتصل مسيلان مع المضيق، في اتساع عند موقع تدفق كل من مسيل شعيب ضعن ومسيل سمحة من كلا الجانبين الأيسر والأيمن

بالتـالي. تفتت الجلاميد عـلى الجانبين إلى سفوح منخـفضة لطيفـة، وقد أصبح عـرض الوادي الآن حوالي ٣٠٠ ياردة، والذي كـان قد انحـرف سريعـاً وبعنف ناحية الغرب ليرافق شعيب رحة الذي كان قد اتصل من الجانب الأيسر على امتداد الحافـة لسلسلة أثيث الضـخمة. أصـبحت أشـجار العلب الآن في وفـرة وأصبح الوادي معطراً بالأعشاب العطرية. كانت تعلو جانبه الأيسر سلسلة ريدان، وأصبح اسمـه من عند هذا الموقع هو العين، بينما أصبح اسم الـغيل الذي يدخله من عند رحة هو حلله. نقـترب الآن من محطة الوصـول النهائية، غـير أنني دهشت حين رأيت في مـسيل يدد الصـغيـر الذي ينحـدر من سلسلة ريدان بعـضاً من المبـاني البسيطة الحجرية التي اتضح أنها ليـست مأوى لمن هم على قيد الحياة بل هي قبب لمدافن تحت الأرض. لقد كـان للموقع قداسـته في أعين آل حيـان، الذين مازالوا يحضرون موتاهم إلى هنا، حتى من المناطق البعيدة مثل صبيا ونجران.

يبدأ غيل عينة مـن عند هذا الموقع، وسرعان ما استقر بنا المـقام في معسكرنا بالقرب من مجموعة أشجار ضخمة من السدر (العلب) والطلح وغيرها في مقابل فم شعيب ضبع الذي ينحدر إلى الوادي مـن جهة الجنوب، وكان ارتفاعنا هنا أقل من ٤٥٠٠ قدم من عند ممر شراغب في قمة سعـدي. كان التغيير الذي حدث في الطقس بين الموقعين –والذين تفصـل بينهما مسافة ٣ أو ٤ أمـيال من أقرب طريق مباشـر– ملموساً، فقـد كانت أدنى درجة للحرارة ليـلاً هي ٥٤ درجة. وكان من أكثر الأشـياء جاذبية في عين هو مـوقعها ومظهرها المميـز كواحة عـربية. يجري الوادي الآن، على خلفـية من جرف سـرات المرتفع، بين سلسلة كل من أثيث – على الجانب الأيسـر – وريدان، وكلاهما ينحـدر إلى الخلف بلطف وعلى ارتفاع ٥٠٠٠ أو ٥٥٠٠ قدم فوق سطح البحر.

يكون الوادي بين هاتين السلسلتين وفم كل من رافدي يدد وضبع انبعاجاً معتبراً إلى ما يلي الممرات الضيقة التي دخلنا من عندها إليه، وبعض الشلالات على بعد ميل واحد إلى أسفل ناحية الغرب. كان اتساع الانبعاج عند أوسع مواقعه حوالي ٨٠٠ ياردة وقد احتلت طرفه الشمالي مزرعة من أشجار جميلة كان عمقها ٥٠ ياردة وطولها ٥٠٠ ياردة. ولا توجد مساكن دائمة في الواحة، غير أن بعض الرعاة كانوا يعسكرون بين الأشجار على قرب من الماء، الذي كان يتدفق محدثاً خريراً من عند العيون. لقد ذكرت الرقع الصغيرة من المياه التي قابلتنا في المرتفعات العليا للوادي، غير أنها هنا تكون غدراناً ذات خرير لم أر من قبل مثلها في الجزيرة العربية. كانت تجري فوق بطن صخري ضحل، وبين مروج من عشب الحلفا والقصب حتى تغيب عند منحنى الشلالات التي قد ورد ذكرها. يعزى نمو أيكة الأشجار الجميلة هذه بلا شك إلى وفرة المياه غير العادية هنا غير أن استمرارية حياة الأشجار وبلوغها هذا الحجم لا بد له من سبب آخر. يعتقد أنها محرمة وذلك لقربها من المقبرة القبلية والتي كان العديد من قبورها مبعثراً فوق الأرض المرتفعة من خلف الأيكة، وكان معظمها بيضوي الشكل يرتفع إلى قدمين، ومبنياً من حجر محلي، وأحياناً يزخرف بصفين من حجارة صغيرة بيضاء. كانت هذه بلا شك قبور لجمهرة الناس العاديين، بينما كانت الضرائح الكبيرة في يدد محجوزة للرؤساء وأسرهم.

رأيت ولأول مرة شجرة الابراه من بين الأشجار وهي تشبه كثيراً شجرة الكستناء بظلها المنتشر وبكل ما فيها. كان فوق أغصانها العديد من أعشاش أبو مطرقة، وكان العش بحجم ضخم ومظهر غير منتظم. وكان الطائر نفسه (Scopus umbretta) منتشراً بكثافة وهو يعود في المساء لعشه بعد أن قضى النهار في صيد السمك.

ويطلق عليه العرب هنا اسم انقب الما أو بومه، وقد رأيت طائراً آخر مميزاً لهذه المناطق لأول مرة ويسمى عَجَلة (Lophocerus nasutus forskalii)، مشؤوم المنظر، له طيران كالشبح ومنقاره ثقيل مقوس وهو الذي أكسبه مظهراً ثقيلاً برغم كل جسمه الرشيق. كانت طيور الحجل توجد بوفرة أيضاً، وهي من النوع نفسه الذي يشاهد في الجبال وفي هذه الأثناء تمكنت من إضافة طائر السمنة إلى حقيبة العينات المتحفية، لقد كان يقضي الشتاء في هذا الطقس المعتدل بعد رحلة طويلة من الشمال البارد.

وصلنا إلى المعسكر الساعة ٥,١٥ وذهبت فوراً إلى موقع الشلالات في الجدول، حيث جلست على صخرة أتأمل المنظر وأنتظر غروب الشمس. غير أن المياه الجارية كانت مغرية جداً للدرجة التي لم أستطع فيها أن أكبح صبري أكثر من ذلك وأشبعت رغبتي في شربة طويلة باردة دون أن يشاهدني أحد. وذلك قبل عشر دقائق من موعد الغروب! كانت تلك أول مرة أشرب فيها الماء خلال رمضان، وقد كانت المياه لذيذة. ثم اغتسلت وحركت رجلي ويدي في الماء قبل أن ألحق بزملائي لتناول الإفطار الرسمي، ثم أخذت حماماً ممتعاً في صباح الغد وقبل الساعة الثامنة في بركة تقع بين الشلالات نفسها. كان من أبرز المضاعفات لهبوطنا لهذا الارتفاع المنخفض هو أنني لم أستطع النوم بعمق خلال هذه الليلة الأولى. لقد كنت مشغولاً بكتابة مذكراتي وملاحظاتي حتى الساعة الواحدة صباحاً، حين ذهبت إلى سريري، غير أنني لم أنم إلاَّ عندما تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً لأستيقظ بعد ساعة للسحور. ثم اضطجعت عند الساعة السادسة، إلاَّ أنني نهضت من السرير بعد نصف ساعة، وخرجت للبحث عن الطيور. لقد كوفئت بالتقاط منظر رائع لريدان، الذي يبرز من خلال أشعة الشمس الذهبية الشاحبة وهي تشرق، بزمن طويل قبل أن تبرز الشمس

نفسها فوق القمم لتطل على معسكرنا من فوق حافة الجرف. واستمر هذا حتى الساعة ٨,٢٠ صباحاً.

بدأت مسيرتنا إلى أسفل الوادي حوالي الساعة التاسعة صباحاً. كانت طيور البلابل توجد بوفرة بين أشجار التين البري على الجوانب الصخرية للوادي، والتي كانت تكثر بداخلها ومن فوقها طيور الذعرة بمرح.

هبطنا خلال نصف الساعة نحو ١٥٠ قدماً إلى فم شعيب حرير الذي أقبل من عند الجانب الأيسر بين سلاسل كل من أثيث وأدن والأخير هذا معلم أرضي كنت قد لاحظته من عند العمود الحدودي من ممر علب. ثم واصلنا هبوطنا في اتجاه غربي بصفة عامة ومررنا بمساحات كثيفة من الحلفا وعلى فترات. ثم وصلنا إلى فم مسيل أحده (حدا) وينحدر من تل ثروة في الجرف، والذي فيه سجل مرشداي رقعتين صغيرتين لمياه الغيل، هما سددة وكانت العليا ورنده وتقع أسفلها. ويستمر الوادي من أعلى عينه حيث يلتقي بشعيب حرير على الجهة اليمنى من ريدان وشعيب معرض حتى أدن على اليسار. ويبلغ عرض المجرى هنا ٥٠٠ ياردة وقد كان حجرياً وعارياً من النبات، غير أننا قبل أن نصل إليه كنا قد سمعنا العواء المألوف للقرود المحلية، ولقد وصلنا في الوقت المناسب لنرى فريقاً منها وهو يصعد سفوح حرير. ورأينا كذلك وسمعنا أنغام زوج من طيور العجلة، وكنا قد أدخلنا إلى صندوق العينات المتحفية بعضاً من الحمام الأخضر، وبعض الطيور النساجة حمراء الوجنات. وذلك خلال مسيرة اليوم. ثم وصلنا إلى أسفل إلى بركة ملحة الصخرية التي يغذيها نبع في قاعدة صخرة جرانيتية على الجانب الأيسر ويقال عنها إنها تكون دائماً مليئة ولكنها لا تفيض. وقد انتشر من فوقها الظل اللطيف لأشجار العلب، بينما كانت الأرض من حولها مكسوة بأشجار

الباليتو. لقد كانت بقعة لطيفة. ويتصل شعيب نفض بمجرى عطف من عند كل من أدن ومسيل خبيرة الصغير من جهة اليمين وإلى ما وراء الأخير، وحرفي على اليسار، وكذلك من عند أدن. كما لاحظت أن كلاً من مرشدي السنمانيين عايض ومداوي –وقد قدمتهما للقارئ في قمة سعدي– ينطقان «ل» بدلاً من «ض» مثلا «لرم» بدلاً من «ضرم» (الخزامى). ويسميان القرود أرباح أو قرو أو قرده.

تتصل مجموعات أخرى من المسايل مع الوادي إلى أسفل على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر وهي مسيل عرم (من عند أدن)، وآخر من حرير (من ريدان) وجودله على اليسار (من حمة). ويقبل إلى أسفل هذه، مسيل نفض آخر ومسيلان باسم مليح أعلى جزيرة كثيفة الأشجار في وسط انبعاج عريض للمجرى. لقد كانت هذه الجزيرة عبارة عن شبكة من شجيرات قصيرة وحشائش الحلفا مع العديد من أشجار العلب جيدة النمو، ويبدو أنها كانت مأهولة ببعض الرعاة. ولم يكن لي دليل على ذلك غير معزة واحدة. ثم وصلنا بعد ذلك إلى غابة حقيقية لنبات الحلفا الذي يرتفع إلى ١٥ أو ٢٠ قدماً مع العديد من أشجار العلب والأثاب (التين البري) إلى جانب بعض أشجار الدوم وهي أول مرة أرى فيها هذه الأشجار في هذا الوادي. يوجد في هذه الغابة مشرب نخله، غير أنني لم أشاهد الماء في بطن المجرى، والذي كان مبللاً ولعله هو مصدر القطع المائية التي لاحظناها، وقد وصلناها سريعاً وهي تنساب في جدول لمئات قليلة من اليارادات، لتختفي فجاة كما بدت فجأة عند فم مسيل يسمى أضملة من جهة اليسار.

يتصل وادي مهرة العريض الكثيف الشجر الذي ينبع من سفوح ثروة، مع المجرى الرئيس والذي تغير اسمه الآن إلى فرشة ويتسع ليصبح عرضه ١٠٠٠

ياردة ويكسوه غطاء نباتي ثري. كما ينتشر نبات الحلفا وكتل ضخمة من القصب وبعض أشجار الدوم فوق الوادي من هذا الجانب إلى الجانب الآخر تاركة مسافة صغيرة من المجرى لتحمل مياه الغيل الذي على امتداده سرنا لفترة، لنتوقف عند فم شعيب جع، الذي يقبل من جهة اليسار، وبعد فترة راحة امتدت ثلاث ساعات، وقد كنت نائماً في معظمها بعمق. لقد هبطنا الآن إلى ارتفاع ٣٧٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكانت فترة الظهيرة شديدة الرطوبة، غير أن النسيم قد هب من عند الوادي في وقت لاحق، وكان من الممتع أن يستطيع المرء أن يغتسل في الوادي البارد دون أن يقلق على استنزاف مخزوننا من الماء. لقد شربت الجمال بشراهة حينما وصلت إلى هذا الغيل.

يقع جانبا الوادي إلى الخلف في سفوح لطيفة وكان المجرى الوحيد المهم الذي دخل إلى الوادي هو وادي نعام وينحدر من عند سلسلة عمث البعيدة التابعة لمنطقة بني بشر ناحية الشمال. ابتدأت أعداد أشجار الدوم في الازدياد بين الحلفا والقصب كما لاحظت أن زملائي البدو الذين يرافقوني قد التقطوا الثمار المتساقطة وأكلوها عند الغروب. كانت الثمرة غير شهية، وكانت تؤكل منها طبقتها الخارجية وذلك لأن المركز كان صلباً ومستديراً ككرة البلياردو ويستخدم في السودان في صناعة الزينة العاجية المزيفة. يقوم البدو بحرق الحلفا في أجزاء كثيرة من الوادي لتقوية المحصول لمقاومة الرعي الربيعي لأغنامهم. كانت مياه الغيل منقطعة وظلت تظهر ثم تختفي أثناء اقترابنا من دلتا الحلفا والأعشاب الأخرى، التي تكونت بارتطام وادي حمة من عند السلسلة التي تحمل الاسم نفسه وتقع على يسارنا. وأصبحت أشجار الدوم في وفرة حقيقية في هذه الدلتا، تنمو هنا وهناك حول الدلتا في أجمات مغلقة.

يضيق الوادي فيما يلي الدلتا، وهو يتعرج ويتلوى باستمرار وبه جدول يجري في بطنه الذي تنتشر فوقه الصخور، وعلى جانبيه كوَّنت أشجار الدوم شارعاً جميلاً. يتصل المسيلان الكبيران وهما شحاته (يسار) وحبره (يمين) مع المجرى وهما متقابلان مع بعضهما في هذه المرتفعات المتعرجة، والتي قابلتنا فيها مجموعة من العرب وهم متجهون أعلى الجدول، وقد أفادونا بالخبر الذي يقول بوقوع غارة قام بها آل مسعود ليلة الأمس على الريث في البلاد التي تقع أمامنا. لقد غير الوادي اسمه بالمناسبة من عند دلتا حمة وإلى أسفل، فأصبح اسمه لحجة بدلاً من فرشة، ويعادل ذلك مواقع نمو الحلفا والقصب. لقد قرر المرشدون بأسلوبهم الخاص أين سيكون معسكرنا هذه الليلة غير أنه لم يقطع أمر ذلك إلاَّ بعد مضي نصف ساعة بعد الإفطار الذي كان عبارة عن جرعات من الماء، حين وصلنا إلى مخيم للبدو فيما يلي فم شعيب جعفر إلى اليسار في أحمية ساحرة لأشجار نخيل الدوم، التي استقر بنا المقام في وسطها لقضاء الليلة. كنا على ارتفاع ٣٣٠٠ قدم فوق سطح البحر وكانت درجة الحرارة الدنيا أثناء الليل ٥٧ درجة.

كان معسكرنا فعلياً على مسيل شلله الصغير عند موقع التقائة مع لحج في أرض كل من آل حوير وآل يزيد، تحت قسم سرع قحطان الذي يشكل شعيب جفر حدوده الشرقية، كما أن بعض أجزاء الوادي تابعة لآل حيان، أحد عشائر آل سريع. ودفعنا لمرشدينا التابعين لآل حيان أجرتهما مقابل خدماتهما المتواضعة وكانت الأجرة ثلاثة ريالات لكل واحد منهما. كان عايض مفيداً إلى حد ما، أما مداوي فقد كان جميلاً في غموض ومتنعماً وعديم الفائدة، ويبدو أنه يكره القيام بأي نوع من الإجهاد. وقد عينت في مكانهما رجلاً من آل يزيد من المعسكر على الجانب المقابل للجدول وكان بعض ذويه قد زارونا وتناولوا معنا عشاءنا المتواضع الخالي من اللحوم.

بدأنا رحلتنا عند الساعة العاشرة صباحاً (٧ ديسمبر)، وكانت سلسلة ريدان لا تزال ترى من خلفنا، بينما اتجه الوادي ناحية الشمال الغربي. كانت مياه الغيل تبدو لنا متواصلة لعدة أميال، وقد انتشرت أشجار الدوم على امتداد الجدول وعلى الجانبين. لقد سرت على قدمي معظم الطريق، وكنت أمتطى الحيوان من حين لآخر لأجل التغيير. كان المكان بلا حياة بشكل مدهش لا يتناسب مع جمال الموقع، وكان كل ما لمحناه من بني بشر خلال المسيرة التي امتدت لأكثر من ساعتين، رجلاً شبه عارٍ وبرفقته كلب. لقد ازداد حجم قافلتنا وذلك بالتحاق عدد من الرجال والنساء من معسكر آل يزيد وقد كانت لهم أعمال في أسفل الوادي. سار الرجال بمرح، كانوا عراة إلاَّ من خرقة تستر العورة وهم يحملون بنادقهم عرضياً فوق أكتافهم من خلف أعناقهم، وكلا اليدين ممسكتان بعقب وبماسورة البندقية. لقد كان معظمهم مسلحاً ولقد شاهدت إحدى النساء وهي تحمل السلاح، وكان ذلك لتخفيف الحمل مؤقتاً عن أحد الرجال. ترتدي النسوة قبعات طويلة شبيهة بالسلال من القش للوقاية من الشمس. وكان بعضهن يرفع الجزء الأعلى من سماقهن الفضفاض الواسع، وهو كل ما كن يرتدين من غطاء، فوق قبعاتهن وذلك لأجل حماية أكثر. ثم مررنا في أحد المواقع بمنطقة من القرود جالسة بهدوء على جانب التل كانت تراقب تقدمنا إلى أسفل الوادي، لقد كان غذاؤها الرئيس في هذه الأرض هو ثمار الدوم والتين البري وبعض ثمار توتية أخرى.

لقد وصلنا إلى رافد مهم، وهو المسيل العريض المسمى اسقم، وذلك بعد مسيرة ساعة، مررنا خلالها بفم مسيل بعشة إلى اليسار، بعد أن تركنا كلاً من المعسكر وشعيب مخلفة على الجانب نفسه، الذي ينحدر إلى الجانب الأيمن من تل بكة البعيد. لقد اختفى جدول مياه الغيل بعد ذلك وبدا المجرى يدخل مضيقاً، به

صخور عالية من شست يشبه الألواح وقد كانت كهوفها وشقوقها موطناً للعديد من الأرانب الأوروبية. يبدو أن الشست هو الصخر القاعدي الأساسي لكل هذه الأرض المرتفعة لتهامة، وذلك لأنني على ما أذكر، لم أر أي نوع آخر من الصخور تقع أسفله، علماً بأنه يوجد الكثير من الجرانيت في المنطقة. لقد وصلنا إلى ثقوب مائية تسمى برد في وسط المضيق في أرض المجرى الرملية والذي كانت صخوره هنا عالية جداً، وشديدة الانحدار، وسوداء اللون جداً. لقد قابلتنا في هذا الموقع امرأة متقدمة في السن وجميلة جداً وذات صفات منحوته بجمال وقد تبادلت التحية والمزاح من قريبها، محمد أبو أعلى، مرشدنا، وهو رجل مسن قاسٍ إلى حد بعيد وصموت. كان مسيل برد الذي تشتق منه اسم الثقوب المائية ذا مجرى عريض ويدخل الوادي إلى مسافة قليلة فيما يلي الثقوب المائية. ويقال إنه ينبع من مرتفعات سلسلة وثران بعيداً إلى الجنوب. وكانت هنالك امرأة جالسة بمفردها عند زاوية الطريق وكأنها لوح من خشب أكثر منها إنساناً إلى أن وصلنا إليها.

يُكَوِّن مدخل وادي أسقمة بعد مسافة، إلى اليمين وإلى ما وراء نهاية الممرات الضيقة انبعاجاً واسعاً وعشبياً للوادي وتحيط به أجمات أشجار الدوم. كانت أعداد القرود هنا كثيرة جداً، وبالمئات تلو المئات، ويبدو أنها قد توزعت إلى ثلاث فرق ولا يزعجها أمر وجود بني بشر. وكان هنالك قطيع ماعز كبير يرعى عند جانب التل وتقوم بقيادته امرأتان، ولم يثر الظهور المفاجئ لموكبنا حتى القرود. لقد تحركت إحدى فرق القرود، يقودها زعماؤها بمسيرة مماثلة إلى جانبنا وعلى مسافة محترمة لمرافقتنا على جانب التل.

واصلت مياه الغيل ظهورها فيما يلي انبعاج أسقمة – تحت مسمى عين سودان – على هيئة جدول لطيف عريض يتموج في هدير خفيف فوق الحصا ثم

يمر من خلال الشارع الجميل لأشجار الدوم الذي ينتهي عند موقع تدفق وادي لحج من جهة اليمين داخل رافد عريض ومهم أيضاً يسمى لحج. ينحدر هذا من تلال عمث في مقاطعة بني بشر ويكون التقاء مسيلي لحج خط الحدود بين قسم آل سرع وقسم جوب التابع لقسم آخر من قحطان، والذي يزعم أنه الأصل الأبوي لبني بشر في مرتفعات تهامة ولقبيلة عبيدة وقبيلة شريف في الجرف.

يسمى الوادي المشترك الآن رحة بدلاً عن لحج، ويتوقف فيه مياه الغيل، مؤقتاً، لتظهر بعد مسافة ٥٠٠ ياردة إلى أسفل. كانت الأبقار متوافرة في هذه المنطقة، من عينة وكانت تشاهد على فترات، وهي ذات سنام صغير، ويبدو أنها وافرة اللبن. والأبقار أكثر وفرة في منطقة رحة هذه منها في أي موقع آخر. ربما بسبب اتساع المراعي الذي تسببه كثرة الروافد التي تدخل إلى الوادي من كلا الجانبين. لقد رفعت لي أسماء أكثر من ١٤ من هذه المسائل[١] كما رواها لي دليلي، خلال مسيرة ساعتين ونصف الساعة – لنقل ٦ أو ٧ أميال عن طريق الوادي الملتوي – غير أن أكثرها أهمية كان شعيب ضروة الذي يقبل من عند الجانب الأيمن على بعد نصف المسافة إلى أسفل، وهو ينبع من البعيد إلى الخلف في جبال بني بشر التابعة لعمث. لقد قابلنا القليل من الناس هنا وهناك، وكانت هنالك امرأة منفردة، ترتدي قلنسوة من القش، وهي ترعى الأغنام، وقابلنا مجموعات صغيرة من رجل أو رجلين وهم يجلسون عاطلين بجوار الجدول تحت النخيل، بينما ترعي ماعزهم بجوارهم، وقابلتنا مجموعات من حين لآخر من القرود تكاد تكون إنسانية في سلوكها الرصين. ثم بدأ نسيم قوي يهب عند

(١) على الجانب الأيمن: رحة، وحسين، وضل حسا، وضروة، ومضو (تنطق مللو)، ومناخ، ومجنب، وشقرة. وعلى الجانب الأيسر: ضرة، وضروة، وضروة سفلى، وضراية، وفورو، ويقع ثيحو أسفل معسكرنا. (المؤلف).

الظهيـرة، وقد أدى ذلك إلى تلطيف الأجواء على الرغم من نعـاس رمضان الذي كنت أقاومه حتى الساعة الثانية ظهراً على أمل أن نحرز تقدماً في السير أكثر مما قد أحرزناه. قـررنا أن نتوقف – على أي حال – للراحـة في بقعة ظلـيلة والتي منها ابتعدت مجموعة من القرود في هدوء ونحن نتقدم نحوها. لقد نمت هنا بعمق لمدة ساعتين ثم أخذت حماماً منعشاً في المياه الجارية قبل أن نواصل المسيرة.

أصـبح منظر أشـجـار الدوم، على الرغم من سـحـره، مملاً داخل المسـافـة المحصورة للوادي. والذي حـددت سفوحه الشديدة الميلان مجـال الرؤيا. غير أن المنظر تغير سريعاً مع اتجاه الوادي ناحية الجنوب الغربي، فقد بدأنا نشاهد جانباً من الكتلة العظيمة لجبل الريث التي تقع أمامنا وتقع سـلسلة دفع المنخفضة أمامه على امتـداد الجانب الأيسـر لوادي دفع، وهو الشريان الصـرفي الرئيس لجبـال الخولان (تهامة)، ذلك لأن وادينا هو النسخة القـحطانية المقابلة. يدخل مجرى وادي بيش العريض،على الجـانب الآخر من على بعـد نصف ميل بعد بداية سـيرنا، ووواديه الجاري وأشجـار الدوم التي تحفه، عـبر مروج الحلفا، إلى الوادي من عند منـبعه البعـيد في الأطراف البعـيدة لتمنيـة بالقرب من أبهـا. أدت هذه الزيادة في القوة لاندفاع الجدول في هدير فوق البطن الحصوي العريض الذي تحفه على اليسار كتلة عظيمة من صخـور شستية ملساء سوداء ومـنغرسة عند زاوية ٤٥ إلى ٥٠ درجة، وعند طرفها البعـيد يتصل وادي دفع نفسه مع رحة في دلتا عـريضة يكسوها نبات الحلفا ونبات القـصب، وتجري خلالها ميـاه الغيل وكأنها النهـر والتي كانت تلهو عليهـا أسراب عديدة من طيـور الماء إلى أن تسببنا في إزعـاجها. ويُـكَوِّن التـقاء المجـريين الرأس الحقـيـقي لوادي بيش، والذي يجري مـن هنا كوادٍ عـريض مع الجدول المدعم له وهو يحتضن الجلاميد الشـستية على الجانب الأيسر، بينما يكون

الحرف على الجانب الآخر، علامة أرضية بارزة ومن حولها يتجه الوادي ناحية الشمال الغربي. ويهبط سطح حصوي عريض من هذه العلامة الأرضية إلى شريط كثيف من أشجار الطلح والدوم على امتداد الجانب الأيمن للجدول الفعلي. كانت الأحوال هنا، وخاصة منظر طيور الماء، أكثر إغراء لنا، ولذا عسكرنا على السفح الجبلي لقضاء الليلة.

كان ارتفاع رأس وادي بيش عند ملتقى كل من رحة ودفع حوالي ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكانت درجة الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً ٧٩ درجة. وكانت الدرجة الدنيا للحرارة ليلاً ٦٥ درجة، ويصعب على المرء أن يصدق أننا كنا قد تعرضنا لبرد شديد قبل ثلاثة أيام فقط. كانت مسيرة النهار شديدة الحرارة، وكانت هنالك نسبة عالية من الرطوبة في الهواء، والتي تسببت في تكوين ندى كثيف أثناء الليل. كان كل شيء ينز بالماء في صباح الغد، وكان علينا أن ننتظر طلوع الشمس لتجفف لنا الأسرة قبل أن نطويها للسفر. كان هنالك الكثير من المياه السطحية في هذه الأرض - للأسف - مما حدا بطيور الماء التي لاحظناها حين وصولنا أن تظل بعيدة عنا. لقد كانت حقيبتي المتحفية مخيبة للآمال أيضاً، على الرغم من أنها احتوت على ثلاثة أنواع من البط وفرد واحد من دراسة الصخور دون الحديث عن طائر العجلة الذي أصبح مألوفاً، إلى جانب عينة من نقار الخشب الذي لم أكن أتوقع وجوده عند هذا الخط العرضي المنخفض. لقد كان هو الطائر الوحيد الذي رأيناه وربما يكون قد ضل طريقه من الهضبة، برغم أنه لا يوجد ما يؤكد أنه طائر أراضٍ مرتفعة فقط. لم ترجع طيور مالك الحزين والطائر المخوض التي كنا قد رأيناها، مرة أخرى للمكان، غير أنني رأيت في الصباح الباكر ما بدا لي وكأنه خمسة من طيور اللقلاق، وهي تقف في صف على قمة

صخرة عالية على الجانب الأيسر للوادي. لقد اختفت كلها سريعاً ولم أعد أراها بعد ذلك. أدهشني أنه في بلاد وافرة المياه كهذه، لا توجد إرهاصات تدل على محاولة للزراعة من أي درجة كانت، في كل هذا الوادي، من عند عينة إلى أسفل، غير أنه قيل لي إن التربة هنا ضعيفة. كان الغذاء الرئيس لهؤلاء الناس هو لبن الأبقار، واللحم من حين لآخر، وغالباً لحم الضأن أو الماعز. كما أنهم لا يأكلون في مجموعات عكس ما يفعله عرب الصحراء.

قرر عايض، ذلك المرشد الذي كنت قد دفعت له أجرته في معسكر شللة، أن يظل معنا لكي يرى أكثر عن العالم. لقد جاء دور محمد أبو أعلى لكي أدفع له أجرته ويذهب في حال سبيله، وفي مكانه لحق بنا رجل من الجوب اسمه جابر، ويتبع لأحد عشائر قبيلة آل حسن، وذلك لصحبتنا للمرحلة التالية من الرحلة. كنت أعتقد أنه قد التحق بنا لرغبته في رؤية بعض الأصدقاء والأقارب أسفل الوادي، والذين حمل إليهم جدياً تمت ولادته حديثاً أثناء سيره بجوار الجمال. يرتدي جابر ملابس عبارة عن إزار قصير جداً، وحزام للخراطيش البندقية ثلاثة أرباعه فارغة، وإضافة إلى، البندقية. كان رجلاً قصيراً غير أنه متين البناء وصوته هادر عميق وكان يستخدمه في انطلاقات مختصرة مثل «أى» و «لا» إجابة عن الأسئلة التي توجه له ونادراً ما يبادر بالحديث. لقد استمعنا للقرود وهي تنادي بعضها بعضاً خلال الليل كما لا بد أن يكون هنالك معسكر للرعاة في الجوار وذلك لورود مئات الرؤوس من قطعان الماعز إلى موقع الماء وذلك قبل أن تبدأ رحلتنا، ومنها عادت إلى مراعيها في التلال وهي مكونة منظراً رائعاً في تسلقها بجهد في مجموعات، مع إيقاع تساقط الحجارة من عند الصخرة السوداء الشديدة الانحدار.

لقد قابلتنا إحدى نسائهم الراعيات على مسافة إلى أسفل الوادي، وكانت امرأة شابة وجميلة، وفي عمر الزواج، ولكنها لم تتزوج بعد، كما قال جابر، والذي تصله بها قرابة بعيدة. لقد كانت فتاة مكتملة النمو والبناء ذات ابتسامة ساحرة وعيون ضاحكة لامعة، كانت ترتدي القبعة المألوفة المصنوعة من القش وترفع قناع الموسلين بعيداً عن وجهها. كانت ترتدي زياً يتكون من قطعتين، بدلاً من السمق العادي، من ثوب أعلى يتصل عند العنق ويتدلى في فضفضة إلى أسفل ومن الخلف ويكون الجانبان مكشوفين، ومن قطعة قماش ملفوفة حول خاصرتها ومطوية على الجانب. لقد كنت متمكناً من ملاحظة هذه التفاصيل وذلك أثناء مرافقتها لجابر لفترة، وهما يسيران بجوار جملي إلى أسفل الوادي تجاه السور الواقي العظيم لجبل الريث. وبدا لي هذا الجبل وكأنه من صخر رملي وربما كان من الجرانيت، وكانت كتلة كبيرة منه قد انتصبت عمودية إلى ارتفاع ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وفي وسط الشست وفوق الأرض المحيطة. ينتمي هل الريث إلى قسم خولان. وتنفصل أرضهم عن آل سريع (قحطان) بواسطة وادي دفع، وتنفصل عن الجوب (أيضاً قحطان) بواسطة وادي بيش من عند موقع الالتقاء وإلى أسفل، ويمتد الجوب إلى وادي أبخ الذي يدخل بيش على بعد ميلين إلى الأسفل من عند فم دفع، ويقع منبعه في كتلة تمنية.

كان الوادي أسفل معسكرنا ممتلئاً بشجيرات نبات الشار وبأشجار الرين صفراء الأزهار، وهي منتشرة جداً في سفوح تلال مكان، بينما استمر شريط أشجار الدوم بلا انقطاع بين الجلاميد العالية التي تساعد على تضخيم أقل صوت. فمثلاً، يكون لصوت حركة احتكاك أحد الجمال على جذع شجرة الدوم على مسافة ووراء موقعنا حين يرده الصدى إلى أسفل الوادي، كأنما هو طلقة نارية قد أطلقت، وعندما

استخدمت بندقيتي كان صوت الصدى كالرعد. يمتد الوادي إلى أسفل بين جلاميد كبيرة كأنها الغدير، ثم فجأة يفسح الشست المجال للجرانيت ليتخلله. كان الصخر يميل على درجة ٤٥ وقد احتل كلا جانبي الوادي، غير أن الشست كون خلفية له على الجانب الأيمن وبدأ وكأنه يغطي أجزاء منه وكأنما انقلبت الكتلة المتصدعة رأساً على عقب فوق موقعها الأصلي. كانت قاعدة جبل الريث جرانيتية في وضوح، غير أنني لم أقطع الشك إن كان الجزء الأعلى منه هو صخر رملي أو هو من الجرانيت. ويطل جانبه الشرقي على المجرى الرئيس الصرفي الداخلي للمنطقة وهو وادي رنقة الذي كان فمه موعد لقاء جابر مع شقيقه لاستلام الجدي. ولم يصل شقيقه، غير أننا دعونا إلى وقفة إلى حين وصول الشقيق ولمدة نصف ساعة وقد وظفتها بفائدة بنشاطاتي في البحث عن الحشرات خاصة الفراشات العديدة التي كانت تطير فوق الوادي العطر. ويبدو أن ثمار الدوم المتساقطة المتحللة هي الأكثر جاذبية للفراشات وكذلك الطين الرطب بجوار الوادي. هبط على مسافة قليلة إلى أسفل الصدع المحدود الأهمية والذي يسمى أم لجة، إلى بيش من على الجانب الأيسر وعبر انحدار رائع يتكون من ثلاثة أجزاء والذي بجواره، وفي داخل كهف مظلل في جوف الصخرة الجرانيتية شاهدت رجلين وعدداً من الأطفال وكلهم عراة تماماً وهم ينظرون إلى ناحيتنا. وفي أثناء مرورنا تحصلت على أحد طيور مالك الحزين من هذا المكان وقد كنت قد رأيت الطائر من قبل في ملتقى دفع.

وصلنا إلى نهاية الجرانيت على مسافة الميلين من عند أم لجة، وقد استعاد الوادي معطفه الشستي وسط صخور شديدة الانحدار. كان الوادي يتجه ناحية الشمال الغربي بصفة عامة وتقع كتلة ثريان العالية أمامه في حين يدخل على الجانب القريب منه وادٍ آخر بالاسم نفسه إلى وادي بيش من عند تمنية. يقع السور

الواقي العظيم المسطح القمة جبل الريث إلى الخلف قليلاً من موقعنا ناحية الجنوب، غير أنه لا يزال يحجب كل شيء في الجوار، وهو جبل عظيم بحق يرسل العديد من المسايل إلى أسفل حتى تتصل مع وادي بيش عند منحنى عريض ناحية الغرب. ثم مررنا هنا بأول المناطق المأهولة بالبشر في هذا الوادي، ولقد كانت مجرد مجموعة من عشش صخرية منخفضة، بعضها لم يزد حجمه على حجم خيمة معسكر مؤقتة. لقد كانت العشش على أي حال مأهولة. ثم مررنا على مسافة قليلة إلى أسفل بامرأة أخرى جميلة جداً وهي تستحم في الوادي تكسوها ملابس شحيحة، إلاَّ أنها كانت مغطاة بحشمة. لقد كان الوادي متخللاً بالعديد من البرك العميقة الممتلئة بالأسماك الكبيرة، غير أن الرمال هنا كانت خطرة وكثيراً ما تغوص تحت وطأة وزن جمالنا. كان لون الرمال رمادياً أسود. ثم دخل عدد من المسايل إلى الوادي الرئيس على فترات ومن كلا الجانبين، ويبدو أن الجرانيت الذي ظهر مرة أخرى هنا كان مختلطاً مع صخور الشست وكان يقع حقيقة أسفلها.

يحمل الوادي الاسم المحلي الفيض، من موقع دخول شعيب شرحان، وترافقه كتلة ضخمة من أشجار الدوم خاصة عند فمه على يمين الوادي، ويبدو أنه منحصر في انبعاج محلي يحتوي على غابة حقيقية للدوم كأنها واحة، إلى جانب حقول عظيمة للحلفا. وقررنا التوقف هنا لأجل الراحة بضع ساعات ويمتد أمامنا منظر جيد لجبل الريث، ناحية الجنوب الشرقي وتمتد مستديرة إلى الجنوب في سلسلة منفصلة مزدوجة القمة تسمى قرشو، التي كانت سفوحها الخارجية تكون بالفعل الجانب الأيسر لهذا القسم من بيش (أو فيض) لمسافة تليه إلى أسفل. ظهرت لنا أيضاً قمتا تمنية من ناحية الشمال الغربي من أعلى وادي ردوم ووادي

عورا اللذين ينحدران من كتلتهما إلى بيش إلى مسافة إلى الأسفل. لقد تكوَّن الجانب الأيمن لعورا قريباً من موقع دخوله، بواسطة سلسلة جبال بيد العالية. لعل النطق لحرف «و» الأخير في كلمات قرشو وردوم يقصد به «ي» قرشي وردمي وهو لهجة محلية. ومن غرائب لهجتهم إدغام المقاطع الأخيرة من بعض الكلمات، مثلاً، «آل الشا» بدلاً من «آل الشام» و«ذللي» بدلاً من «ذا الليل». لقد تكاثرت الآن طيور الشقراق الإثيوبية الجميلة في مزارع الدوم وقد استطعت أن أتحصَّل على أولى عيناتي المتحفية لها أثناء توقفنا عصر هذا اليوم. لقد كانت بالطبع من أكثر طيور تهامة عسير شيوعاً، وتنتشر إلى البعيد إلى ساحل القنفذة، وليس إلى ما يلي هذا الموقع.

لقد لفت انتباهي عمود صغير، وذلك بمجرد أن بدأنا مسيرتنا، وهو مبني من حجارة بيضاء، الواحد منها فوق الآخر، قائمة على طرف جلمود. لقد كان تقليد محلي أن يقام نصب تذكاري لقتلى الحروب القبلية – أصبح هذا التقليد مثبّطا الآن ومهجوراً – ولا يقام النصب التذكاري على موقع سقوط الضحية القتيل، ذلك لأنه قد يكون قد تمَّ قتله وهو يتحرك أعلى أو أسفل الوادي، ولكنه ينصب حيث أحتبأ العدو القاتل الذي قام بإطلاق الرصاصة. لقد كانت الحرارة شديدة في الوادي أثناء فترة الظهيرة، ولكن سرعان ما هبَّ نسيم جنوبي غربي بمجرد بدايتنا للمسيرة، وكنا حينها نعبر أفواه العديد من الروافد والمسايل على الجانبين إلى أن وصلنا إلى موقع اتَّصل فيه شعيب لحج آخر[1] مع الوادي من جانب الريث إلى الجنوب الشرقي.

(١) دخلت إلى بيش، ما بين فم دفع وفم لحج، ما لا يقل عن ٢٥ رافداً هي: الجانب الأيمن: أبخ، وثريان، وحرشو، وفرع، وشرحان، وردوم، وعورا، وملتف، وثلثين وقرًا. ومن الجانب الأيسر: صلاح (مسيلان) وروايح، ورنقه، ولجة، واوسط (ثلاث مسائل) وحيلمة، ورشدة، ومثامة، ونقيل، وعتية، وغرف، ورجل. (المؤلف).

قررنا أن نعسكر هنا في منبعج واسع تكون بواسطة هذا الرافد المهم وعند التفاف ثعباني للوادي الرئيس، ويمتد أمامنا منظر كامل «لأعمدة القتل» التي إما أنها كانت لذكرى كمين كبير أو مصيفاً مشهوراً لرجال قبائل يهوون المتاعب. وقد تحول اسم «فيض» مرة أخرى إلى بيش وذلك من عند فم عورا وإلى أسفل.

كان الارتفاع هنا ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وأفرزت الليلة التي كانت درجة الحرارة فيها ٦٦ درجة، نسبة عالية من الندى. كانت أرضية الوادي هنا بالتأكيد من الجرانيت، غير أن الجلاميد كانت لا تزال من شست داكن ما عدا الأجزاء السفلى. كان الجزء المبكر من المساء عاصفاً، ذلك لأنه ومنذ الغروب بدأت رياح قوية تهب على السفوح المجاورة وحول منحنى الوادي، غير أنها هدأت في وقت لاحق وكانت الليلة ساكنة بما فيه الكفاية، ما عدا إزعاج الضفادع التي يبدو أنها كانت متوافرة بكثرة في هذا الملتقى المائي، وقد واصلت الضفادع نقيقها حتى غلبني النوم بعد سهري العادي الليلي مع أعمال المزواة وكتابة الملاحظات. لقد وقع معظم زملائي منذ لحظة وصولنا إلى عينة بإغراء الماء الوافر لهم، وكان صيام رمضان خلال الأيام القليلة الماضية قد تمَّ الالتزام به ليس بإطاعته وإنما بخرقة. ويبدو أن الأهالي المحليين لا يأخذون الصيام مأخذ الجد، إذ أنهم يشربون متى ما أحسوا بالحاجة لذلك[١]. لم يكونوا يشربون من المياه الجارية، بل كانوا يحفرون الرمل للحصول على بركة طازجة وماء أشدِّ برودة، وتراهم وقد انبطحوا أرضاً يلعقون السائل بشفاههم، يحمل النسوة أواني القرع ويشربن منها. لقد توقف القائمون على رعي الجمال عن الصيام، وهم رجال من حوط، كانوا قد صاموا فوق الهضبة مع ذويهم، كما منح سعد نفسه رخصة إفطار المسافر في شهر

(١) هذا تعميم خاطئ لأن ما يقوم به بعض الأفراد لا يعني أن الجميع كانوا يقومون به (المراجعون).

رمضان. ولقد حافظ على الصيام حقيقة كل من فرج، وابن هذيل – وهو طباخنا النجدي والذي يساعد في كل شيء – بالإضافة إلى اثنين من رجال الجمال وشخصي، كما بقيت من الشهر أيام قليلة.

رافقنا في هذا المعسكر شخص آخر اسمه جابر أيضاً، وهو من ناحية النسب خال لأحد مرشدينا، وبالرغم من أننا سنختار مرشدين جدد في كل أرض تابعة لقبيلة مختلفة، فقد قرر مرشدانا السابقان أن يظلا معنا، وقد ذكر جابر – مرشدنا السابق – أنه لم يغادر إلى خارج بلده لأبعد من قرية الحقو، وهي أولى قرى سهل تهامة الحقيقة، بالقرب من الموقع الذي ينبعج فيه وادي بيش وهو ينحدر من المرتفعات. كانت سلسلة البيض الممتدة على مجرى عورا هي الحدود الغربية لجوب. ينتمي الجانب الأيمن لبيش من هذا الموقع وتجاه الغرب وأراضيه المرتفعة إلى قسم آل الشام (معراج، ومعجور ووعسكر وأقسام أخرى)، وينتمي قسم شحران لأرض تمنية، والذين يكوِّنون فرعاً جانبياً لبني شحر الذين يتمركزون في الشمال من أبها في جبال السراة. يقع الجانب الأيسر لبيش، وأراضيه المرتفعة حتى الحقو نفسها ناحية الغرب – من عند دفع إلى أسفل – وداخل أراضي الريث التابعين إلى آل خزيم وآل حسن، وغيرهما من الأقسام.

كان مرشدانا الجديدان قد حضرا لمقابلتنا هنا بعد تعينهما بتوصية من دليم ابن دليم، ويتبعان أصل الريث، وهما بالاسم: يحيى بن مسرع وهو شيخ آل خزيم، وموسى بن حمدان، وهو شيخ آل حسن. كان موسى مميزاً وعلى الرغم من أنه رجل بالغ في السن وله لحية وكل ذلك، إلاَّ أنه لم يكن مختوناً. إن تأخير الختانة هو التقليد المتبع بين قبائل تهامة وهم يعتبرون عملية الختان اختباراً للشجاعة الشخصية والاحتمال، ويحتفلون بها في مواكب عظيمة وتشريفات. ولا يتزوج

الرجال إلاَّ بعد ختانهم وللعـروس المختارة الحق في رفض الرجل الذي يحجم عن هذه العملية، والتي كانت ذات طبيعة قاسية وأكثر الأعمال وحشية. يشتمل الختان في هذه القـبائل على إزالة الجلد مـن عند المعدة من جـانب إلى آخر إلى مـا يلي السرة ثم على جانبي الوركين وما بينهما بنزع الجلد منها كلها وتكون البقعة المتأثرة بهذا هي المعـدة، الحوض، والقضيب، والصـفن، وأسطح الأرجل الداخلية والتي تكون كلها مسلوخة. إنهـا حقيقة عملية سلخ جـزئي لكائن حي ويقال إنَّ العديد من الشبان يستسلمون لهذه العملية. لقد منعت الإدارة السعودية هذا العمل بصفته من مخلفات العصـر الوثني القديم، وهو أمر مخالف لتعـاليم الإسلام غير أنه في هذا الوقت، لا يزال يطبق وبدقة، وسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً للتخلص من عادة تعمَّـقت في التقاليد القـبلية[١]. يتطلع موسى لتجـربته الشخصيـة لهذه الطقوس الوحشية وكل أمله أن يجعل فتاته فخورة به.

وقد لاحظت امـراً آخر بين هؤلاء الناس، وذلك أنهم يلجـؤون إلى محـاكاة أصـوات الحيـوانات للفت الانتبـاه فـي مناداة الأصـدقـاء الذين يـصلهم هذا الصوت. أطلق جـابر مثلاً أثناء سـيرنا وعلى فـترات، صوتاً يحـاكي صوت طائر البوم، كما سمعت صوتاً آخر خلال هذه الأيام يحـاكي الخشخشة أو البقبقة يكرر ثلاث أو أربع مرات. كـانـت البنـدقيـة التي يحملونهـا هنـا من النـوع الإيطـالي المعروف والذي يسـمى أبـو كسوة، والذي يشبهون علية ذخيرته خماسية الخرطوش بكيس الصفن لعضو الذكر، كما يعكس الخيال المحلي. تستعمل هذه البنادق بكثرة

(١) يشير المؤلف إلى بعض العادات السلبية التي كانت منتـشرة في المناطق النائية عن مراكز العلم والحضارة، وقد زالت جميع هذه العادات بعد توحيد المملكة العربية السعودية، وانتشار التعليم والدعوة في أنحاء البلاد. (المراجعون).

obeikan.com

في اليمن ويمكن الحصول على واحدة في هذا الوقت بسعر ٣٠ ريالاً.

خلال الساعتين الأوليين من بداية مسيرتنا – لنقل خمسة أميال داخل الوادي – صباح اليوم التالي (٩ ديسمبر) كون السفح الشديد الانحدار لكتلة بيض الجانب الأيمن لبيش، الذي تباين عرضه بين ١٠٠ و٢٠٠ ياردة، وقد تشرح على جانبه الآخر بالمرتفعات العالية البعيدة لنظام جبل الريث – بما في ذلك القمَّة العالية لجبل صمد – الذي كان رأس مسيله يتكون مما لا يقل عن ١٨ رافداً [١] لبيش تنحدر إلى أسفل إلى حيث مقر معسكرنا للمساء المقبل عند مشقة، التي تقع قليلاً إلى خارج السفوح المجاورة لسهل تهامة. وقفت كتلة بيض سداً منيعاً أمام مصرف تمنية، والذي كان يغذي الوادي الرئيس عبر جانبه الأيمن، غير أنه يمون كذلك ما يزيد عن النصف من الروافد الثانوية بما في ذلك بيضو [٢] وهو أكبرها وأولها. انحدرت الروافد، فيما يلي الجزء الغربي لسلسلة تمنية بما في ذلك الجبلان العظيمان وهما يدا ووعر.

كما كان هنالك ما لا يقل عن ١٤ من هذه الجبال تقع بين الطرف الغربي لبيض ومشقة [٣]. ولقد كان البطن الضيق للوادي في الجزء الأعلى (بطول ٨ أو ٩ أميال) مكسواً بنبات الحلفا في غزارة، وغطاء نباتي آخر، إلى جانب أشجار الدوم التي كونت في بعض الأجزاء أجمات كبيرة. ثم بدأ الوادي يتسع إلى عرض ١٠٠٠ ياردة بين تلال تنخفض تدريجياً، ليصل ارتفاعها إلى ٥٠٠ أو ٦٠٠ قدم وكنا نحن نقترب

(١) هذه الروافد هي: قنا (مسيلان)، وحلوة، وخبرة، وزهوة، وخبير، ويحاضر، ومواجي، وعده، وقوارة، وقوار، وطليبر (وادي كبير) ومسمة، وورثة، وحضلو، ويخرث، ومسيلان تسميان غلفة (المؤلف).

(٢) كانت بقية الروافد هي وانسل (مسيلان)، وعجرة، وضنبة، وشضيبة. (المؤلف).

(٣) هي بالاسم: ريكان، ويسرة، ورجة، وحريثة، وصريث، ورثمة، وبعو، وابو القمقان مخيرف، ورفضه (واديان) وملحة، وحسارة ومسيلان أيضاً. (المؤلف).

من طرف السهل، غيـر أن الغطاء النباتي ازداد كثافة مع اتسـاع الوادي وظلَّت أشجار الدوم واقفة في خطوط كثيفة على جانبي السهل الأوسط حيث نبات الحلفا مع الكثير من نبات الشـار وغطاء نباتي آخر والذي ينتشـر من خلال تعرج الجدول بين ضـفتين رمليتين منخفـضتين. انحدرت العديد من الروافد عـبر أفواه قد خنقتهـا نباتات الحلفا وأشجار الدوم لبـعض المسافة. لم نسمع أو نر الكثيـر عن القرود خلال يوم أمس في الممرات الضيقة، غير أنها ظهرت إلى أسفل، في السفوح الكثيفة الأشجار في الوادي المتسع، ونادراً مـا كنا بعد ذلك بعـيدين عن مدى سـماعهـا أو رؤيتها. ولقـد كانت رائحتها قـوية برغم وجود النباتات العطرية التي كانت أسراب الفـراشات تحلق بكثافة حولها.

كانت الحياة البشـرية تدب بصورة متقطعة. فقد مررنا بقطـيع كبير من الأبقار والجمال بعد بداية مسيرتنا بقليل، وهي تقاد ناحية مرعى باتجاه أعلى الوادي، ومن خلفها امرأة تسوق جـملاً محملاً بكل مستلزماتها المـنزلية. ثم أقبلت امرأة أخرى بعدها من ورائها وهي تحمل رضيعهـا في مهد مصنوع من جلد البقر وقد عُلِّق من فوق كتـفيها وعلى ظهرها. كمـا مرَّت بنا امرأة، وذلك أثناء توقفنا القصـير لجمع الفراشات والطيور التي نتج عنها الإمساك بأول عينة من وقواق تهامة، وكانت هذه المرأة في طريقهـا مع اتجاه أسفل الوادي في صـحبة زوج من الجـمال. لم تذهب بعيداً بل جلست بجوار الجـدول لتشرب من القرعة التي كانت تحملهـا ولتغتسل. كانت قد اكملت وضوءها حينما واصلنا مسيرتنا فإذا بها تلتحق بعفوية مع قافلتنا، وهي تمشي مجهدة بجانب جمليها وتشارك فـي محادثة متقطعة مع مرشدينا. لقد كانت تحـمل قرعة وزوجـاً من صندل مصنوع من الحـصير (القـصب) في يديها، وكانت تسيـر حافية متـوشحة مئزراً يصل إلى قـدميها مطويّـاً عند الخـاصرة. كان

الشال ساقطاً على كتف واحد تاركاً الكتف الآخر عارياً، غير أنه كان يغطي ثدييها تماماً ومعظم ظهرها. كانت المرأة تلبس على رأسها قبعة من القش مغطاة بقطعة من الصوف البني، التي بدورها كانت مغطاة بقناع موسلين أسود. لم تكن المرأة صائمة بالتأكيد وذلك لأنني كنت قد شاهدتها وهي تشرب، واعترف مرشداي بأنهما لا يلقيان بالاً لرمضان[١].

أصبح معروفاً لديَّ أن هذه المرأة تنتمي بقرابة مع مرشدي موسى، وذلك لأن شقيق والدته كان والدها. كانت متزوجة ولكن زوجها ظل غائباً عن البلدة، وهي الحقيقة التي أمكنتها من مرافقتنا -علماً بأنها لم تخلف منه أطفالاً- إلى معسكرنا التالي وإلى ما يليه في اليوم التالي. لقد كانت على أية حال متجهة في اتجاهنا نفسه، وذلك لأن جملها سيعودان وهما محملان باحتياجات أسرتها من عند القرية التي تقع عند طرف تهامة. لا يمكن وصف وجهها بأنه جميل، غير أنه يكون كذلك حينما تبتسم، مع نقرة جذابة في وسط الذقن. كانت المرأة نحيلة البنية على الرغم من صدرها الكبير التام النمو، وكانت تتحرك برشاقة تحمل بندقية مرشدنا موسى من حين لآخر. لقد كانت حقيقة، أنموذجاً كاملاً لأنثى النوع البشري وقد كان الرجال أيضاً ذوي جمال غير طبيعي من الطراز الحسي الشهواني، كانت التقاطيع - فيما يبدو لي - سامية. كان مهر الزوجة عند قبائل بيش هذه - كما قيل لي - مرتفعاً إلى حدود ٢٠٠ ريال أو حتى ٣٠٠ ريال، بالمقارنة مع ١٠٠ ريال فقط للجمل، وهو سعر عالٍ في المتوسط بمستوى الهضبة العادي.

(١) عدم صيام المرأة ليس دليلاً على عدم اكتراثها بالصيام، بل قد يكون لها عذر شرعي يبيح لها عدم الصيام.. (المراجعون).

يتَّصل مع وادي بيش من نقطة أعلى رافد يخرث الذي ينحدر من جبال الريث، الذي يقع أمامنا الآن منظر رائع له لكل امتداده من الشمال إلى الجنوب، فوق السلاسل المنخفضة والتلال لما أصبح الآن أرض سفوح جبلية، وقد اتَّخذ الوادي الآن اسم «مشقة» وسيظل يحتفظ بهذا الاسم إلى أن يتَّمثل بالسهل. لقد تأخر الوقت كثيراً وكادت الشمس أن تغرب، على الرغم من أننا لا نزال بعيدين عن الموقع المحدد لمعسكرنا. كنت أرغب في أن نواصل السير دون توقف لتناول الإفطار، غير أن جابرًا بدأ يشتكي من العطش، لأنه كان صائما أيضاً، وكان يلح على أن نتوقف حينما حسم الأمر بواسطة زوج من الصقور عاد ليعشعش في شجرة الدوم في اللحظة نفسها التي كنا نعبر فيها. لقد التقطت بندقيتي التي كانت بارزة من حقيبة السرج على جانبي حينما صعد الطائران العظيمان بانزعاج وأطلقت رصاصة مجازفة. كانت الخراطيش من النوع السباعي غير أنَّ رصاصتي أصابت الهدف واخترقت الجناح المنتشر لأحد الطائرين والذي سقط بدوره بارتطام عظيم على أرضية الوادي. وكان لا يزال حياً وقادراً على الطيران، إلاَّ أنه لم يستطع ذلك. لم أشأ أن أفسد العينة برصاصة أخرى، ولذلك كان توقفنا قد وفّر لجابر كل الوقت ليطفئ عطشه ويتناول إفطاره بينما انصرفت أنا ومعي فرج للإمساك بالطائر وإزهاق روحه ببطء. كان الطائر الآخر يحلق فوقنا، غير أنه لم يحاول الإنقاذ. لقد كان صقراً أسود داكناً ويسمى علمياً باسم صقر بتلير.

لقد سعدت كثيراً بهذه الجائزة غير المتوقعة التي كان ثمنها بعض التأخير في الوصول إلى المعسكر الذي يقع على الجانب الأيسر لوادي مشقة، فيما يلي موقع دخول رافد غلفة من عند جبل الريث عبر أجمة كثيفة لأشجار الدوم. بدأت السحب تتجمع في السماء من جهة الشرق، غير أنني استطعت أن أتحصَّل على

ملاحظاتي حول النجوم. تناولنا الإفطار في هذه الأثناء وتعشينا بلحم ماعز وبالعصيدة، ولم أنس احتياجات السيدة الوحيدة المرافقة لهذا الفريق. كانت هي والمرشدون قد استقر ثلاثتهم على مسافة منا، وقد ذهبت ناحيتهم لأسأل السيدة ماذا تفضل أن تتناول في العشاء. فأجابت أنها ترغب اللبن واللحم. لقد كان لدينا الكثير من اللحم، غير أنه لم يكن معنا لبن. ولم ترغب هي في العصيدة. لقد تعشَّت السيدة على اللحم فقط؛ ذلك لأن الحارسين كانا قد التحقا بنا لتناول العشاء معنا. ولقد نام ثلاثتهم معاً، في كوخ الأجمة وبملابسهم التي كانوا يرتدونها، ولم يكن على الرجال إلاَّ القليل منها. كانت ليالي تهامة دافئة، وكانت درجة الحرارة ٧٢ درجة غير أن الارتفاع فوق سطح البحر كان فقط ٩٠٠ قدم. يحتوي هذا الجزء من مشقة على انبعاج عريض يكون رأس الدلتا التي عن طريقها يشق الوادي طريقه عبر آخر مجموعة للسفوح الجبلية ليجري آخر مراحله لمسافة ٣٠ ميلاً عبر السهل. كانت الساعة الثانية صباحاً قبل أن أذهب إلى النوم غير أن البعوض كان وافراً ومزعجاً وقد نلت القليل من النوم قبل أن أصحو لتناول وجبة السحور. لقد كان هنالك ندى كثيف أثناء الليل.

لقد انتهينا الآن من أمر الجبال ولا يتبع الطريق بعد الآن وادي بيش وإنما كان قد ابتعد عن جانبه الأيسر فيما تبقى من سلاسل لسفوح جبلية فيما يليها ليحتضن حافة الأراضي المرتفعة حول قرية الحقو. كان معسكرنا على جانب الطريق على بعد ٣٠٠ ياردة من حافة الوادي في وسط سهل حجري ضيق. قمت بتسلق هضبة منخفضة في الصباح قبل مغادرة المكان، كان ارتفاعها حوالي ٢٠٠ قدم وذلك للمسح النهائي للمنظر. يدور الوادي هنا ناحية الجنوب، وكنت أستطيع رؤية مجراه عبر وفيما يلي السفوح الجبلية الخارجية ولمسافة الميلين تقريباً. ويتَّصل

به عند نصف تلك المسافة مسيل صخري يسمى شعيب قفل الذي ينحدر من التلال الواقعة إلى يسارنا. لم تكن قرية الحقو نفسها مرئية لنا، غير أنها تقع ناحية الجنوب الشرقي، كما نستطيع رؤية السلسلة المنخفضة والهضبات التابعة لمحاسل على مسافة في السهل. كان هنالك جبل مرتفع مرئياً لنا إلى البعيد ناحية الشمال الغربي عند أعلى السلاسل للسفوح الجبلية، بينما تقع السفوح الثلاثة لكل من وعرد ويدا ناحية الشمال، وتمتد بقية تمنية في جوارها في سلسلة طويلة ناحية الشمال الشرقي. وقفت كتلة بيض ناحية الشمال الشرقي، بينما أمكننا رؤية جبل القهر بعيداً ناحية الشرق ومعه قمته الصباعية في سلسلة الريث التي تقوم القبائل فيها بزراعة -كما قال موسى- ليس فقط القمح ولكن أيضاً البن. تبدو يدا الآن وهي واقفة أمام سلسلة تمنية وعر إلاَّ أنها تقع أعلى من السفوح الجبلية، والتي تتمركز في سلسلة عالية تمتد شمالاً من الجانب الأيمن لبيش وتسمى ضهره -ينطقونها لهره-. كما أمكننا رؤية القليل من أرض خبط -أرض منخفضة- كما يسمون تهامة، وذلك بظهور ضباب خفيف فوق المنظر.